الصحراء الجزائرية في كتابات مارمول كاربخال

سالم بوتدارة
جامعة سيدي بلعباس

لم تقتصر الكتابات حول الصحراء على أبناء المنطقة أو غيرهم من العرب الذين زاروها أو سمعوا وكتبوا عنها، بل تعدت هذه الكتابات إلى الغربيين أو ما عرفوا بالمستشرقين الذين كتبوا عن بلاد العرب والبربر وحضاراتهم عبر العصور، تدفعهم إلى ذلك أهداف ومطامع عديدة، لكن بالرغم من ذلك فإن هؤلاء الغربيين ساهموا بكتاباتهم مساهمة لا يمكن تجاهلها أو الانتقاص من قيمتها العلمية، خاصة فيما يتعلق بالتعريف بمجاهل الصحراء الإفريقية التي تتربع الجزائر على مساحات شاسعة منها.

ولعل من الغربيين الذين كان لهم السبق في الكتابة عن صحراء الجزائر وجغرافيتها وسكانها هو الإسباني مارمول كاربخال MARMOL KARVAJAL حيث ألف في القرن السادس عشر الميلادي كتابه "إفريقيا" L'AFRIQUE الذي يعتبر من المصادر المهمة في التعريف بإفريقيا، ومنها أهم مناطق الصحراء الجزائرية، وأحوال قاطنيها وجغرافيتها ومسالكها بشيء من التفصيل، كتيكورارين (قورارة)، والساورة، والمزاب، وتقرت، وورقلة، وبسكرة، والطوارق ومناطق تواجدهم.

وتتجلى أكثر أهمية ما كتبه مارمول عن الصحراء الجزائرية، كون معظم هذه الكتابات عبارة عن مشاهدات ووصف لما عرفه مارمول بالمعاينة الميدانية، فنقل لنا الأحداث على طبيعتها، مما يمكننا من مقارنة ذلك بالمصادر المشابهة لها في الدراسة، فتصير نتائج ما نتطرق إليه أقرب إلى العلمية والموضوعية.

وما سنستعرضه مزدوج الاهتمام، فهو يعرفنا بكتابة غربية ذات أهمية لتاريخ صحرائنا، ثم بأحوال بلدان المنطقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهذا ما يضعنا أمام إشكالية – نحاول الإجابة عليها - تتعلق بارتباط تاريخ صحرائنا بما كتبه مارمول كاربخال، فما مدى أهمية مثل هذه الكتابات بالنسبة لصياغة تاريخ المنطقة؟، وإلى أي حد تمكنت فيه من سد الفراغ وتوصيل الحلقات التي أهملتها المصادر الأخرى؟، وهل كانت نظرة مارمول كنموذج للمؤرخين الغربيين إلى واقع الصحراء مطابقة لنظرة ما كتبه أبناء المنطقة أو غيرهم من العرب؟.

أولا: مارمول كربخال:

مارمول كربخال MARMOL KARVAJAL سائح ومؤرخ إسباني ولد بغرناطة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، اشتغل ضابطا في جيش الإمبراطور شارل الخامس[1] وشارك في الحملة التي شنها الأخير على تونس في سنة 1535م.[2] وبعد مغادرة الأسطول الإمبراطوري لتونس بقي مارمول في شمال إفريقيا يقوم بمهمة كلفه بها شارلكان، وطال مقامه نحو أثنين وعشرين سنة، أسر خلالها من طرف الشرفاء السعديين، وبقي عندهم أسيرا سبعة أعوام وثمانية أشهر، يسير في ركابهم أين ساروا عبر بلاد سوس الأقصى والصحراء، و في منطقتي فاس وتلمسان وغير ذلك من الجهات التي تقلبوا فيها، وعاصر مارمول ثلاثة من ملوكهم: أحمد الأعرج ومحمد المهدي وعبد الله الغالب، ووصف عن مشاهدة حروبهم وسلمهم وخلافتهم ورفاقهم وأفراحهم وأتراحهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسيهم من الوطاسيين ملوك فاس وأتراك الجزائر.[3]

وفي غضون هذه المدة استغل مارمول وقته لتعلم اللغة العربية التي تمكن بواسطتها من جمع معلومات تاريخية وجغرافية عن هذه البلاد، وبعد حصوله على حريته قام بتأليف كتابه "وصف عام لإفريقيا"[4]

ألف مارمول زيادة على كتاب إفريقيا:

_ ثورة الموريسكيين بغرناطة وما لقوا من عقوبات، وقد نشر بغرناطة سنة 1600.

- إلهام الجيش المقدس. كما ذيل كتاب:

- صلوات القسيسين الرومان.[5]

ألف مارمول كتاب إفريقيا باللغة الإسبانية اعتمد فيه على ملاحظات الحسن الوزان ونسج على منواله، فصولا كثيرة حرفا بحرف، وقد صدر هذا الكتاب في غرناطة عام 1573م، وقام بترجمته إلى الفرنسية ونشره في ثلاثة أجزاء "دابلونكورت" D'ABLANCOURT NP في باريس سنة 1667، والمعلومات التي قدمها المؤلف في هذا الكتاب تشمل جميع مناطق إفريقيا الشمالية حتى النيجر، بما في ذلك الصحراء الكبرى وإثيوبيا ومصر، كما يحتوي على معظم المعارك التي وقعت حتى سنة 1574م.[6]

اعتمد مارمول في كتابة مؤلفه هذا _إضافة لملاحظاته الشخصية_ على كتب أفصح عن بعضها ضمن طيات الكتاب، ككتاب تاريخ إفريقيا و المغرب لابن الرقيق القيرواني، وجغرافية ابن الجزار المسماة بنوادر الزمان، واعتمد بصفة كبيرة على كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، وقد نقل من هذا الكتاب فصولا كثيرة حرفا بحرف.[7]

أما عن دواعي تأليف مارمول لكتاب إفريقيا فأنقل ما أورده هو بروح التعصب في مقدمة كتابه: "...لم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كله إطلاقا إلا تشجيع

الدول الكاثوليكية على حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون 'بوقاحة' مجد المسيحية، ولا يفتأون يحاربوننا ويتحينون الفرص لتحطيمنا. لكن سيسهل علينا إهلاكهم أكثر من أن نسترجع منهم أرض المقدس لأننا نعرف الآن قواتهم..."[8]

ثانيا: الصحراء الجزائرية في كتابات مارمول:

تطرق مارمول في كتابه إلى ذكر جوانب الحياة بالصحراء الجزائرية، وذلك من خلال تتبع الأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لكل حاضرة من الحواضر الصحراوية أو ريفها كل على حدى.

لكن في هذه الدراسة عن كتابة مارمول سنتناول ما كتبه حسب التقاسيم الحديثة لجوانب الحياة، بدءً بالجانب السياسي ثم الاجتماعي فالاقتصادي والثقافي.

1. **الأحوال السياسية:**

عند حديثه عن التاريخ السياسي لمنطقة ما أو بلد يبدأ مارمول عادة بما يعرفه عن تاريخها القديم وما تعاقب عليها من حكام بتلميح موجز دون ذكر التفاصيل أو الأسماء إلا في القليل النادر، وهذا ما يجعل كتاباته كغيره من المستشرقين الأوائل تحتاج إلى توضيح من المصادر الأخرى الأجنبية أو العربية.

فقد كتب – مثلا- عن بسكرة أنها مدينة عريقة في القدم، بناها الرومان يوم كانوا يحتلون بعض المراكز في إفريقيا، لكن بعض معالمها تعرضت للدمار بسبب الحروب، وأعاد العرب بناءها مرة ثانية...، ثم يوجز ليصل إلى ما حدث في عصره أو قبيل عصره فيقول: تعاقب على حكم هذه المدينة حكام عديدين، فقد ظلت مدة من الزمن خاضعة للسيادة التونسية، ولما توفي الملك عثمان[9] دعا إمامها السكان إلى التمرد على السلطة التونسية، فبايعوه للإمارة عليهم

وخلفه أبناؤه على الحكم على المدينة، ولم يفلح ملوك تونس في استرجاع سيادتهم عليها بعد وفاة عثمان (...)، وتوجد المدينة اليوم تحت نفوذ الأتراك الذين 'احتلوها' في عهد حسن آغا حاكم الجزائر.[10]

أما عن تقرت فنجد مارمول كغيره من الكثير من المستشرقين يرجع إلى المصادر العربية لينقل منها دون الإشارة إليها، فهنا نجده ينقل عن الحسن الوزان ما كتبه عن خضوع تقرت لملوك مراكش،ثم تبعيتها لسيادة مملكة تلمسان، ثم مآلها لملك تونس، لكنه يضيف قائلا: ... أما الحاكم الحالي عبد الله)[11] القائد الشجاع الذي يحرص على سلامة السكان وأمن الإقليم بحرس يتألف من الفرسان ورماة القذائف والبنادق ومن المشاة، قد استأجر عناصر من حرسه من بين المقاتلين الأتراك، لكن ذلك الحاكم لم يكن يعلم ما يبيته له الأتراك الذين أوفى لهم الأجر والعطاء ومنحهم من الإمتيازات ما لم يحلموا به، فدبروا المكائد وحاكوا المؤامرات وشنوها عليه حربا غادرة فأطاحوا به واستولوا على تقرت وإقليمها وسلموها لقمة سائغة للسلطات التركية الحاكمة بالجزائر، لكن الأهالي لم يتحملوا استبداد الأتراك فانتفضوا ضدهم وأبادوا العديد من جنودهم، فأرسل صالح رايس جيشا يتألف من الأتراك والمرتزقة الأعراب، وضربوا على تقرت حصارا شديدا آل إلى استسلامها، إلا أن محمدا ملك مراكش انتزع المدينة منهم واخذ يسوسها، فوجد السكان أن ظروفهم أصبحت مع الشرفاء أفضل مما كانت مع الأتراك.[12]

هذا نموذج عما كتبه مارمول في الجانب السياسي عن بعض مدن الصحراء الجزائرية في القرن السادس عشر الميلادي، وهو نموذج كذلك عن النظرة الحاقدة التي يشاركه فيها العديد من الغربيين للدولة العثمانية نتيجة لحالة الحرب بين هاته الأخيرة وبلدان هؤلاء الغربيين.

ولم يغفل مارمول باقي مناطق الصحراء الجزائرية، أو كما يسميها هو صحراء نوميديا من أرياف وقرى ومداشر وحتى المناطق المهجورة التي يجوبها أعراب المنطقة، فنجده مثلا يتحدث عن أعراب بني قومي ومنطقتهم فيقول: بني قومي منطقة شاسعة من بين المناطق القاحلة التي تتميز بها صحراء نوميديا، وتوجد بها ثمانية قصور وخمس عشرة قرية... تجوب هذه الديار الخالية جحافل أعراب اشتهروا باللصوصية والمكر والخداع ولا عجب أن تكون تسميتهم بأولاد السراق، اسم يحمل مسماه، لأنهم ينشرون الرعب والفساد في الأرض بأعدادهم الهائلة التي تتضمن أربعة آلاف فارس أو يزيدون، فاستأثروا بنفوذهم على البلاد، ولئن كانوا يقضون الشتاء في الصحراء فإنهم يرحلون في الصيف في اتجاه الشمال، قاصدين الاسترزاق لدى ملوك تلمسان، مقابل أجور معينة للمشاركة في العمليات الحربية، وعلمنا أنهم في هذه الأثناء يحاربون إلى جانب الأتراك وفي بعض الأحيان يثورون عليهم ويشهرون السلاح في وجوههم.[13]

ونجد عند مارمول إشارة إلى أن أهل تبلبالة يخضعون لأعراب أولاد حمرون الذين يحتلون الصحاري المجاورة، يقيمون بها في الشتاء ويبارحونها في الصيف حيث يذهبون إلى بلاد الجريد التابع لمملكة فاس.[14]

وما أشار إليه مارمول هنا من سيطرت الأعراب على بعض المناطق لا يوحي دائما بالسيطرة الطويلة الأمد، ففي كثير من الأحيان كانت هذه السيطرة نتيجة لغارة من الغارات التي اعتاد الأعراب القيام بها على بعض القرى الصحراوية لنهب محاصيلها الزراعية لكن سرعان ما يرحلوا عنها.

وقد اعتاد ملوك تلمسان – كما يقول مارمول- أن يستأجروا بعض الأعراب للحفاظ على المسالك إلى أعماق صحراء نوميديا.[15]

ومن هذه الأعماق يذكر مارمول منطقة تيكورارين[16] التي يسير الحكام المحليون بها شؤون الأهالي ويتمتعون باستقلال ذاتي.[17] أما الطوارق فينتسبون إلى الفدرالية القبائلية.[18]

هذه نظرة مارمول إلى الواقع السياسي للصحراء الجزائرية في مطلع العصر الحديث، وهي نظرة فيها شيء من الانتقاص يشاركه فيها كثير من أمثاله من الكتاب الأوروبيين الذين كتبوا عن الصحراء الجزائرية، وإن كان مارمول أكثرهم عصبية وحنقا فنتيجة لما عاشه في ظروف الأسر.

2. الأحوال الاقتصادية:

تميزت الحالة الاقتصادية بصحراء الجزائر في مطلع العصر الحديث بعدم الاستقرار، وذلك راجع إلى الاضطرابات التي شهدتها المنطقة آنذاك نتيجة لمحاولة السيطرة على أجزاء منها من بعض الدول المجاورة.

ويبدوا أن الأوضاع الاقتصادية بصفة عامة في المنطقة لم تصل إلى حد الانهيار الذي يسبب المجاعات، أو الاستقرار الذي يؤدي إلى الرقي والتقدم في المجال الاقتصادي.

ونجد في كتابات الغربيين الذين عايشوا تلك الفترة كمارمول كربخال ذكرا للدعائم التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية كالزراعة والصناعة والتجارة.

يرشدنا مارمول إلى ثلاث قرى – لم يسميها- يقول أنها غير بعيدة من تبلبالة يحيط بها النخيل ذي التمر الجيد لكن المنطقة تعاني من قلة الماء ولا تعيش بها حيوانات أهلية، أما السكان فإنهم يصطادون النعام ويتغذون بلحومها أو يبيعونها إلى السودانيين.[19]

وتشبه ضواحي تبلبالة منطقة بني قومي التي تنتج كميات هامة من التمر، لكن حالة الفقر تخيم على أهلها، ذلك ما يرغمهم على النزوح إلى جهات أخرى

وخاصة مملكة فاس، حيث يعرضون خدماتهم على أهل البلاد، ويوفرون الكثير من رواتبهم فيشترون الخيول من الأسواق ثم يبيعونها بدورهم إلى التجار الذين يذهبون إلى السودان.[20]

ويختلف أهل تيكورارين عن بني قومي في أنهم أغنياء ينتقلون كثيرا إلى السودان من أجل التجارة التي تدر عليهم أرباحا طائلة، وتشكل منطقتهم نقطة التقاء ومجمع للقوافل[21] التي تعبر صحاري ليبيا، إذ يجتمع هناك التجار الوافدون من بلاد البربر وغيرها، فيرحلون معا إلى السودان.[22]

هذا عن التجارة، أما الزراعة فيشير مارمول إلى أن التربة الموجودة بهذه المنطقة رديئة للغاية، وقلما يجد السكان ما يصلح من الأرض للفلاحة، وإذا وجدوا ما يبتغون فتكون الفلاحة عسيرة، إذ ينبغي عليهم جلب الماء من الآبار لسقي الأراضي المحروثة وتسميدها بالفضلات الحيوانية.

ومن بين انعكاسات الجفاف على العيش بالمنطقة غلاء اللحوم لأن تيكورارين لا تتوفر على أغنام أو أبقار، فيضطر الناس لأكل لحوم الخيول، أو لحوم الجمال الهرمة التي يشترونها من الأعراب الذين يتوافدون على السوق الأسبوعي، كما يتغذون بالشحم المملح الذي يأتي به التجار من فاس أو تلمسان[23].

وبني مزاب لا يقلون غنى عن سكان تيكورارين ، حيث ذكر مارمول أن أهل مزاب بما حباهم به الله من ذكاء في التجارة، ومهارة في المعاملات مع أهل السودان، ذلك ما أهلهم للقيام بدور الوساطة بين تجار مملكة بجاية والجزائر من جهة، وتجار السودان من جهة أخرى، وتتبوأ المزاب مكانة هامة إذ أن موقعها جعل منها ممرا للقوافل التجارية في الاتجاهين، فيقف بها أصحاب

البضائع ويؤدون المكوس الجمركية عما تحمله جمالهم فتضاف هذه المداخيل إلى موارد الأهالي وتزيد في ثرائهم[24].

ويكاد يشبه أهل ورقلة بني مزاب في ازدهار التجارة ببلدهم فقد سكنها تجار صنهاجيون أغنياء، تكونت ثروتهم من التجارة التي يمارسونها مع السودان كما يسكنها عدد من الصناع، ويتوافد عليها تجار من قسنطينة وتونس وغيرهما، يعرضون البضائع التي يأتون بها من بلاد البربر، ويستبدلونها ببضائع واردة من السودان ، لكن المدينة تنقص قمحا وأنعاما فيتغذى الناس بلحم الجمل وبلحم النعامة.[25]

والأمر هذا نفسه بتقرت حيث يضطر أهلها إلى جلب الحبوب من قسنطينة مقابل التمر.[26]

وعبر صحاري وادي سوف يتنقل أعراب أغنياء يحظون بشهرة فائقة هم أعراب سميت وأعراب السيد.[27]

ويقل أهل بسكرة غنى عن سابقيهم لأن أرضهم لا تنتج سوى التمر مما جعل الفقر يعم في أوساطهم،[28] ويشبههم في ذلك الطوارق الذين تقتصر منطقتهم على قليل من القمح والتمر، فساءت بذلك أحوالهم الاقتصادية.[29]

3. الأحوال الاجتماعية:

عرف المجتمع الصحراوي الجزائري كغيره من المجتمعات الإسلامية المعاصرة له في بدايات العصر الحديث مميزات اجتماعية نتيجة لظروف سياسية واقتصادية وثقافية لعل أبرزها ما سنتناوله في النقاط الآتية:

أ. الطبقات الاجتماعية: وقبل الحديث عن طبقات المجتمع الصحراوي الجزائري حسب ما ذكره مارمول كربخال فإنه من المفيد ذكر خريطة التوزيع السكاني.

ومن خلال ما كتبه مارمول وغيره من الكتاب الغربيين الأوائل يمكننا استنتاج أن التوزيع السكاني في الصحراء الجزائرية آنذاك لم يكن على أساس المناطق أو النواحي فقط، وبين المدن والأرياف، بل كان على أساس عرقي، فعلى الرغم من تعريب السكان وانتشار القبائل العربية في أصقاع الصحراء الجزائرية فإن العنصر الأكثر انتشارا هو العنصر البربري ثم العربي وبعده بنسبة قليلة المهاجرون الأندلسيون ومجموعة من الجاليات الأجنبية يهود ونصارى.

ونعود لطبقات المجتمع الجزائري في ذلك الوقت وننقل عن مارمول ما كتبه في هذا الصدد حيث يقول أن السكان منقسمون إلى ثلاث طوائف: طائفة التجار وطائفة الصناع وطائفة النبلاء؛ الأولون أناس طيبون أوفياء في تجارتهم معتزون بالنظام والحضارة وحسن التدبير، مهذبون مع الأجانب، والصناع أناس بسطاء لطفاء يعتزون بأنهم يعملون بأدب، أما النبلاء والمحاربون فيعتزون كثيرا بما لهم من وجاهة وشجاعة لأنهم هم الذين يرافقون الملك، لذلك فإن لهم عدة امتيازات وإعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راضية.[30]

ب. **العادات والأعراف:** لم نجد عند مارمول تفصيلا لبعض عادات المجتمع الصحراوي الجزائري المتعلقة بالأفراح والأعراس والولائم والختان، بل اكتفى الرجل بالقول أنها تشبه عادات أهل فاس إلا أنها تقل عنها أبهة وتكليفا.

أما عن العادات الأخرى فقد حكى مارمول نقلا عن الحسن الوزان أن سكان تقرت يحبون الغرباء جدا ويستضيفونهم في بيوتهم بالمجان، ويفضلون أن يزوجوا بناتهم للغرباء من أن يزوجوهم أهل البلاد، ومن عادتهم أن يمنحونهن مهورا مكونة من عقارات كما هو الشأن في أوروبا، ويقدمون أيضا هدايا هامة إلى الغرباء، ولو كانوا يظنون أنهم لن يعودوا إليهم أبدا وذلك لفرط كرمهم.[31]

ويشبه أهل ورقلة جيرانهم التقرتيين فهم - كما حكى مارمول- ظرفاء كرماء يستقبلون الغرباء استقبالا حسنا.[32]

وسكان تيكورارين لا يقلون عن سكان تقرت وورقلة كرما وجودا، فمارمول يذكر أنه عندما كان مقيما بضواحي المنطقة كان الغرباء المقيمون في مختلف أقاليمها ينعمون بالأمن والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم.[33]

4. الأحوال الثقافية:

عرفت الحياة الثقافية والفكرية والدينية بصحراء الجزائر في مطلع العصر الحديث تمايز من حيث الازدهار والركود فبينما كانت مناطق تعج بالمساجد والمدارس ودور العلم كانت بالمقابل مناطق يخيم على سكانها الجهل وعدم المعرفة.

والدارس لما كتبه مارمول في هذا الجانب عن الصحراء يقف على مدى تهميشه له، وسبب ذلك ما ذكرناه آنفا من النظرة الاستعلائية ومحاولة الانتقاص من كل ما بشأنه يرفع من قيمة المنطقة وشأن سكانها باعتبارهم مسلمين، ضف إلى ذلك أن مارمول رجل حرب لا يهتم كثيرا بمظاهر الثقافة خاصة الإسلامية منها والتي كانت الطابع الغالب على المنطقة وهذا ما نلمسه جليا في كتاباته نحو الصحراء.

ومن الشيء اليسير الذي أشار إليه مارمول في هذا الجانب هو الفتوى الشهيرة للشيخ محمد ابن عبد الكريم المغيلي، التي أفتى بها في توات عن اليهود، ويوردها مارمول كعادته بتلميح دون ذكر الأسماء حيث يقول:" كان يقطن بمنطقة تيكورارين عدد من التجار اليهود الذين نزحوا من الأندلس بعدما طردوا منها[34]، إلا أن أحد فقهاء تلمسان[35] أفتى في القوم بإباحة نهب أموالهم، فلم يكتفي الناس بذلك بل قتلوا السواد الأعظم من أولئك اليهود.[36]

والحادثة رغم ذكرها موجزة من طرف مارمول إلا أنها إشارة منه على وجود فقهاء وعلماء بالمنطقة، وهو ما تستفيض في ذكره المصادر المحلية لأبناء المنطقة والوافدين عليها.

وقد ساهم عرب بنو هلال في نشر العربية بالصحراء قبل هجرتهم إلى تلمسان، فالدارس للحركة الفكرية بهذه المدينة في العصر الذي عاشه مارمول أو قبيله، يجد أن من بين عوامل ازدهار هذه الحركة هي هجرة قبائل بني هلال من الواحات الصحراوية والمناطق الداخلية نحو أراضي الزيانيين، مما ساهم في تقوية مراكز اللغة العربية بالدولة الزيانية.[37]

وعلى ذكر هاته الأخيرة فإن الاضطرابات التي شهدتها في أواخر عهدها – كما يذكر مارمول وغيره- أثرت سلبا على الإنتاج الفكري داخل تلمسان وفي بعض الأقاليم التابعة لها، بينما استفادت أقاليم أخرى من هذه الاضطرابات، حيث انتفعت من هجرات علماء تلمسان لها كمنطقتي توات والساورة بالصحراء، وكانت هذه الهجرات قد بدأت منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر بداية – بما ذكرناه – بهجرة الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي،ثم ابنه محمد، ثم الشيخ أحمد بن عمر الميموني المتوفى سنة 1580م.[38]

وعلى العموم فما ذكرناه من هجرات العلماء يعتبر من أهم عوامل ازدهار الحياة الثقافية بالصحراء الجزائرية، لكن الاضطرابات التي شهدتها المنطقة نتيجة لبعض محاولات السيطرة عليها أصابت الحياة الثقافية بشيء من الانتكاسات ، وبالرغم من هذه الأخيرة فإن الحياة الفكرية حافظت على سيرورتها بفضل المؤسسات التعليمية كالمدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب والمكتبات، إضافة إلى مجالس الوجهاء والأعيان، دون إغفال ما كانت تقوم به الطرق

الصوفية من تشبث بالمبادئ ونشر التدين على طريقتها في مختلف أصقاع الصحراء.

وفي مجمل ما تناولناه عن الصحراء الجزائرية من خلال كتابات مارمول كربخال كنموذج للغربيين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها، يمكننا الخروج بانطباعات عديدة لعلها خلاصة ما ذكرناه ، وهذه الانطباعات تتعلق بالكتابات الغربية والإستشراقية عن الصحراء الجزائرية ومدى قيمتها العلمية والتاريخية.

ويمكن إجمال الإفادات المتعلقة بما كتبه مارمول كنموذج للمستشرقين عن الصحراء الجزائرية في النقاط الآتية:

- تعتبر هذه الكتابات ذات أهمية كبرى بالنسبة لصياغة تاريخ الصحراء فالباحث في هذا التاريخ لا يمكنه الاستغناء عن مصدر جل محتوياته عبارة عن ملاحظات ومشاهدات حضرها المؤلف أو عاصرها.
- ساهمت هذه الكتابات مساهمة لا يستهان بها في إثراء فترة مهمة من تاريخ الصحراء الجزائرية وتوصيل الحلقات التاريخية التي أهملتها المصادر الأخرى.
- تمكنت الكتابة من تجسيد دور همزة الوصل بين تاريخ الصحراء وجغرافيتها، مما يسهل على الباحث فهم الأحداث التاريخية وإدراك تأثير جغرافية المكان عليها.
- تعكس الكتابة نظرة مختلفة عن نظرة أبناء المنطقة لتاريخ صحرائهم نتج عنها مدرسة متعصبة للأفكار البابوية، عامة روادها من المستشرقين والمؤرخين الغربيين.

الهوامش:

1. شارل الخامس: ولد سنة 1500م، وتوج ملكا لإسبانيا سنة 1520 ثم إمبراطورا على ألمانيا كوريث شرعي لأسرة آل هابسبورغ بعد وفاة جده ماكسيميليان وكان والده قد توفي سنة 1515م وترك له أمريكا، قشتالة، أراغون، نافار،نابولي هولندا، وغدت فرنسا محاصرة بين أملاكه الواسعة، ازاء ذلك نشبت الحرب بينه وبين فرنسا ، انهزم سنة 1515 أمام الجزائر، ونتج عن ذلك ترك الحكم لإبنه وتوفي سنة 1558.
2. إسماعيل العربي، "بجاية من خلال النصوص الغربية" ،مجلة الأصالة، عدد 13 (عدد خاص)، قسنطينة 1972، ص74.
3. مارمول كربخال، إفريقيا،(ترجمة محمد حجي وآخرون)، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط:1984،ج1 ، ص5.
4. إسماعيل العربي، المرجع نفسه، ص 75.
5. مارمول كربخال، المرجع السابق، ج1 ،ص 6.
6. إسماعيل، العربي، المرجع السابق، ص 75.
7. اقتفى مارمول في كتابه إفريقيا أثر الوزان في كتابه وصف إفريقيا حذو النعل بالنعل، ونسج على منواله ومعلوم أن مارمول ألف أو أتم كتابه على الأصح سنة 1571 أي ما يفوق أربعين سنة بعد انتهاء الحسن الوزان من تأليف وصف إفريقيا بمدينة روما عام 1526 لأول مرة بمدينة البندقية عام 1550 وأعيد طبعه أربع سنوات وانتشر في أرجاء أوروبا. أنظر: - مارمول، كربخال، المصدر السابق، ج1، ص6.
8. نفسه، ،ص12.
9. هو السلطان أبو عثمان الحفصي الذي تولى الملك بتونس من عام 1434 حتى وفاته عام 1488م
10. مارمول كربخال، المصدر السابق،ج3، ص168.
11. عبد الله بن محمد الشيخ.
12. مارمول كربخال، المصدر السابق،ج3، ص 165 – 166، وتجدر الإشارة إلى أن مارمول كعادته يبالغ فيما هو ضد الأتراك لما يكنه من حقد عميق لهم والأسباب ذكرتها سابقا، وننبه هنا أن صالح رايس توجه إلى تقرت لإخماد ثورة قائدها وقائد ورقلة اللذان أرادا الاستقلال الذاتي وظنا أن المسافة بين الجزائر والصحراء تثني والي الجزائر عن المغامرة بجنوده في الصحراء التي يجهلها الأتراك ورفضا الاعتراف بها. انظر: جون ب وولف،الجزائر وأوروبا، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.ص20.
13. مارمول كربخال، المصدر السابق، ج 3، ص 160.

14. نفسه، ص 159.
15. نفسه ،ج2،، ص 292.
16. تعني لفظة تيكورارين بالبربرية، الثكنات العسكرية، وتسمى اليوم قورارة وتقع شمال توات.
17. مارمول كربخال، المصدر نفسه، ج 3، ص163- 164. ولا ندري ما يقصد مارمول بكلمة استقلال ذاتي، وربما يقصد ما أشار إليه في عدة مواضع في كتابه من أن الشرفاء السعديين والأعراب وكذا الزيانيين من قبلهم كانت لهم غارات على هذه النطقة وربما اتخذت طابع السيطرة التي تستوجب التبعية والخضوع التي لم تكن بالشكل الكامل ولذا عبر عنها بالاستقلال الذاتي.
18. المصدر نفسه ، ص 131.
19. المصدر نفسه، ج3، ص159.
20. المصدر نفسه ، ص160.
21. يقصد مارمول بلا شك منطقة تسابيت الواقعة في شمال إقليم توات الواقع في الجنوب الغربي للصحراء الجزائرية، والذي كانت له أهمية لا يستهان بها، ولاسيما في المجال الاقتصادي والنشاط التجاري، وأهميته تكمن على الخصوص في وقوعه على طرق القوافل التجارية المتجهة من الشمال نحو السودان الغربي، ومن هذا الإقليم الأخير نحو الشمال إلى الجزائر والمغرب وتونس وحتى طرابلس، وعن أهمية هذا الإقليم يقول عبد العزيز الفشتالي: "...هذا الإقليم المفرع إلى قطر توات هو أوسع وطنا وأفسح مجالا وأقرب إلى السودان اتصالا وجوارا". أما محمد بن الحاج عبد الرحيم المشهور بابن بابا حيده صاحب كتاب القول البسيط في أخبار تمنطيط الذي جاء بعد الفشتالي ، فأوضح لنا أهمية قاعدة الإقليم تمنطيط فقال: "اجتمع فيها العلم والإنارة والديانة وانتصبت بها الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع، فكانت لا يستغني علمها غني". أنظر:الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، (تحقيق عبد الكريم كريم)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، (د.ت)، ص73. أيضا: محمد بن الحاج، ابن بابا حيده، القول البسيط في أخبار تمنطيط، (مخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط)، وجه رقم7.
22. مارمول، المصدر نفسه، ج3، ص163.
23. مارمول ، المصدر نفسه ، ج3، ص163.
24. نفسه، ص 164.
25. نفسه، ص166.
26. نفسه،ص 165.
27. نفسه، ص 168.
28. نفسه،ج3، ص 168.

29. نفسه، ص 131.
30. نفسه، ج2، ص298.
31. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر)، ج.م.ت.ت.ن، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1983 ، ج2،ص41، وانظر مارمول، المصدر السابق،ج3، ص165.
32. نفسه، ص166.
33. نفسه، ص 164.
34. تم طرد اليهود من اسبانيا عام 1492 بأمر من الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا.
35. يقصد الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي.
36. مارمول، المصدر السابق، ج 3، ص 163.
37. عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف موسى لقبال، جامعة الجزائر، سنة 1995، ج 2، ص122.
38. محمد بن عبد الكريم، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، ص 23.